شديد الورع ، ذا شخصية قوية ، وجرأة على الحق ، فلا تأخذه في الله لومة لائم ، مهما لحقه من الأذى ، أو التشنيع من الجاهلين أو الحاسدين أو المغرضين ، وكان أهل العلم والدين معترفين له بذلك ، ولا ينكرون علمه وفضله وشمائله .

وكان الطبري شديد الزهد في الدنيا ، لا يلتفت إليها ، ولا يقبل العطايا والهبات والتبرعات ، وكان قانعاً بما يرد عليه من تركة والده التي خلفها له والده بطبرستان ، وعرض عليه القضاء فامتنع وأبى[1] .

قال ابن كثير : «وكان أسمر ، أعين ، مليح الوجه ، مديد القامة ، فصيح اللسان ، روى الكثير عن الجم الغفير ، ورحل إلى الآفاق في طلب الحديث ، وصنف التاريخ الحافل ، وله التفسير الكامل ، الذي لا يوجد له نظير ، وغيرهما من المصنفات النافعة في الأصول والفروع»[2] .

ونكتفي بهذه النبذة المختصرة عن مقومات التفكير عن الطبري ، والصورة المصغرة عن حياته ، لنخصص البحث عن الجانب الفقهي للإمام الطبري ، ابتداء من طلبه للفقه إلى بلوغه درجة الاجتهاد ، وتبوئه منصب الإمامة في المذهب الخاص به ، وعطائه المبارك في المصنفات الفقهية .

الطبري يطلب الفقه

تعريف الفقه وأهميته :

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، أي هو معرفة الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي ،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٥ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١٢ .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٤٥ .

وتقتضي من المكلف البالغ العاقل القيام بعمل وسلوك وتصرف في الحياة ، كوجوب الصلاة وأدائها ، أو الامتناع عن فعل كتحريم القتل ، أو التخيير بين فعله وتركه ، لإباحة الأكل وتناول الشرب ، على أن تكون هذه المعرفة مستنبطة ومستمدة بالنظر والاجتهاد والبحث من نصوص القرآن والسنة وبقية المصادر الشرعية ، ويكون الفقيه مجتهداً في هذه الحالة ، أما المقلد لغيره ، أو الحافظ لأحكام الفقه فلا يسمى فقيهاً في الأصل ، ثم أصبح الفقه أخيراً بمعنى إدراك أحكام الحوادث نصاً واستنباطاً ، ودراسة وحفظاً على مذهب من المذاهب ، والفقيه هو الذي يعرف الأحكام الشرعية من مذهب معين ، ويحفظها ليعلمها للناس .

فالفقه هو الطريق لمعرفة الحلال والحرام ، وإدراك أحكام الله تعالى التي أنزلها في شرعه ، للالتزام بها ، والتقيد بحدودها ، لأنها ترسم المنهج القويم للإنسان في جميع مجالات الحياة .

والفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية ، ومن أكثر العلوم شهرة واتساعاً ، وصلة بجميع الناس ، وتطبيقاً عملياً في الواقع ، ولذلك يتوجب على كل مسلم معرفته ، فيتجه إليه طلاب العلم ، ويقصدونه منذ نعومة أظفارهم إلى آخر حياتهم ، ويأتي تحصيله في المرتبة الثانية بعد قراءة القرآن الكريم وتلاوته وحفظه .

وظهر الفقه منذ عصر النبوة والوحي ، ثم أخذ الصحابة بعنانه ، ومارسوا الاجتهاد والاستنباط بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وتجمعت لكبار الصحابة آراء وأقوال وآثار حتى صارت أشبه بالمذهب أو المدرسة ، وانتقلت هذه الصورة إلى التابعين ، فأضاف فقهاؤهم الاجتهادات الجديدة ، وظهر منهم فقهاء أعلام ، ومجتهدون بارزون من منتصف القرن الهجري الأول حتى مطلع القرن الهجري الثاني ، واشتهر فقهاء

المدينة السبعة ، وفقهاء الأمصار في المدينة ومكة ، والبصرة والكوفة ، ومصر والشام ، واليمن وغيرها .

وفي القرن الثاني الهجري ظهر أئمة المذاهب المتعددة الذين حددوا لأنفسهم مناهج واضحة ، وقاموا بأعمال مجيدة ، والتَفّ حولهم التلاميذ والطلاب ، ورجع إليهم الناس والحكام ، فقلدوا مذاهبهم ، وجمعوا أقوالهم ، ودوَّنوا آراءهم التي صارت قائمة ومستقلة عن غيرها ، وكثر المجتهدون في هذا القرن ، وتعددت المذاهبُ ، وقام أصحاب كل مجتهد بإضافة الآراء الجديدة للحوادث فيه ، كما قاموا بتنقيح الأقوال السابقة ، ودعمها بالأدلة والحجج ، ورسم المنهج والقواعد والأصول له .

وكان القرن الثالث الهجري الذي ولد فيه الإمام الطبري ، ونشأ في ظلاله ، عصر الشباب والحيوية والنشاط للمذاهب الفقهية التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي ، وكان أتباع كل مذهب يسعون لنشره ، وتقوية أركانه ، مع تدريسه والتأليف فيه ، وتصنيف الكتب لجمع فروعه ، وربطها بالأصول والأدلة .

ولما ولد الإمام الطبري بآمل طبرستان ، ونشأ بها . حفظ القرآن الكريم ، وعمره سبع سنين ، ثم اتجه إلى أخذ العلوم الأولية في بلده ، ومنها الفقه لمعرفة الأحكام الشرعية ، واستمر على تحصيل العلوم والفقه على علماء بلده حتى ملأ جعبته ، وجمع الكثير الكثير منه ، مع ما يتمتع به من قوة الذهن ، وصفاء القلب ، وقوة الحافظة والذكاء المتقد ، والرغبة في المعرفة ، والحرص على التعلم ، والانكباب على الدراسة ، والتفرغ لذلك ، دون أن يشغله شاغل .

الرحلة في طلب العلم والفقه :

ولما بلغ الطبري رحمه الله تعالى العشرين من عمره خرج من بلده ،